دور الثعالبة في تاريخ ناحية متيجة خلال عهد الدولة الزيانية

أ. د. عبد الحميد حاجيات
جامعة تلمسان

يشكل الاهتمام بتاريخ مختلف مناطق الجزائر وحضارتها، والتعرف على سكانها عبر العصور، وعلى الدور الذي قام به مشاهير رجالها في تطورها، عنصرا هاما من عناصر الهوية الوطنية. ومن المناطق التي ساهمت في تأسيس الوطن الجزائري، فحص متيجة، الذي كان ممرا رئيسيا بين المناطق الشرقية والغربية بالجزائر وبشمال إفريقيا. ومن أقدم مدنه قزرونة، وتدعى أيضا قزرونة متيجة، وأطلق عليها اسم نتيجة، ويعتد أنها مدينة البليدة.

أما الثعالبة فهم من عرب المعقل، الذين قدموا إلى بلاد المغرب مع بني هلال وسليم، وتنقلوا بين أنحائه بحثا عن الأراضي الصالحة لرعي مواشيهم، شأنهم في ذلك شأن أبناء عمومتهم ذوي عبيد الله وغيرهم من العرب البدو. ويبدو أن الثعالبة اتجهوا عبر التلول الشرقية نحو الغرب "فدخلوا من ناحية كزول، وتدرجوا في المواطن إلى ضواحي المدينة، ونزلوا جبل تيطري، وهو جبل أشير"[1].

ويذكر عبد الرحمن ابن خلدون أنهم نزلوا جبل تيطري منذ عصور قديمة، أي أنهم أقاموا به مدة أجيال عديدة، منذ عهد المرابطين، ويبدو أن الأوضاع تغيرت عندما ضعف شأن الموحدين بعد هزيمتهم في معركة العقاب، سنة 609 هـ/1212 م، فتقلص نفوذهم في المغربين الأدنى والأوسط، وتغلبت القبائل الزناتية، من بني توجين ومغراوة وبني راشد وبني عبد الواد، على كير من مناطق التلي بالمغرب الأوسط. فاستولت مغراوة عل ناحية الشلف، برئاسة منديل بن عد الرحمن، الذي ملك جبل وانشريس والمدية وفحص متيجة.

وكان بسيط متيجة لهذا العهد مستبحرا بالعمران، آهلا بالقرى والأمصار، ونقل الأخباريون أن أهل متيجة لذلك العهد كانوا يجمعون في ثلاثين مصرا، فجاس (منديل) خلالها وأوطأ الغارات ساحتها، وخرب عمرانها حتى تركها خاوية على عروشها، وهو في ذلك يوهم التنسك بطاعة الموحدين وأنه سلم لمن سالمهم، وحرب على من عاداهم"[2].

وفي سنة 622 هـ، أغار يحي ابن غانية، الثائر على الموحدين من بقايا المرابطين، على بعض مناطق المغرب الأوسط، وهجم على فحص متيجة، فقام منديل المغراوي لقتاله، والتقى الفريقان في متيجة، فانهزم منديل وأسر، وقتله (ابن غانية) صبرا... وتغلب على الجزائر إثر نكبته، فصلب بها سلوه، وصيره مثلا للآخرين"[3]. وبذلك لم يبق لمغراوة أي نفوذ في متيجة.

وعندئذ اغتنم بنو توجين فرصة ضعف أولاد منديل من قبيلة مغراوة، وأغاروا برئاسة عبد القوي التوجيني على متيجة والمدية وجبل وانشريس، وملكوها. وبهذا عظم شأن عبد القوي، "فصار له ملك بدوي لم يفارق فيه سكنى الخيام..."[4]. وأغار على جبل تيطري. فقاومه الثعالبة. "وكانت بينه وبينهم حرب وسلم، إلى أن وفدت عليه مشيختهم، فتقبض عليهم، وأغزى من وراءهم من بقية الثعالبة، واستلحمهم واكتسح أموالهم، وغلبهم بعدها على تيطري، وأزاحهم عنها إلى متيجة"[5].

وكانت ناحية متيجة آنذاك تخضع لنفوذ قبيلة مليكش، فدخل الثعالبة في إيالتهم، وكان لمليكش عليهم سلطان[6]. وكانوا يدعون للأمير أبي زكرياء الحفصي، الذي بسط نفوذه على بعض مماطق المغرب الأوسط، منها المغرب الأوسط، منها فحص متيجة، غير أن يغمراسن بن زيان، مؤسس الدولة الزيانية، نهج سياسة التوسع في اتجاه المناطق الشرقية بالمغرب الأوسط، وأخذ يغير عليها، فاستغاث أمراء تلك المناطق بأبي زكرياء الحفصي، الذي بسط نفوذه عليها سنة 635 هـ، ثم أغار على تلمسان واحتلها سنة 640 هـ، ثم عاد إلى عاصمته تونس بعد عقد صلح مع يغمراسن، الذي أعيد على العرش الزياني شريطة الدعوة للسلطان الحفصي. ولما عاد هذا الأخير إلى بلاده عقد على أمراء زناتة، كل على قومه، فعقد لعلي بن منصور على قبيلة مليكش ببسيط متيجة[7].

وفي سنة 666 هـ، بعد هزيمة يغمراسن في تلاغ، أغار على المناطق الشرقية بالمغرب الأوسط، زمنها فحص متيجة[8]. ثم تكررت الغارات عليها أيام أبي سعيد بن يغمراسن وابنه أبي حمو موسى، الذي اتجه بجيشه إلى ناحية شلف سنة 712 هـ،" وقدم نولاه مسامحا في العساكر، فدوخ متيجة من سائر نواحيها، وملك السلطان أبو حمو الجزائر، وانتظمها في أعماله"[9].

ولما استولى أبو الحسن المريني، سنة 737 هـ، على تلمسان والمغرب الأوسط، ضم المناطق الشرقية إلى دولته، وقضى على نفوذ قبيلة مليكش في متيجة، ووضع حدا لنفوذ بني توجين في وانشريس والمدية وجبل تيطري، وعلى نفوذ مغراوة في منطقة شلف، وضم فرسان مغراوة وتوجين وبني عبد الواد إلى جيشه، وألحق رؤساءهم إلى بطانته، وأقطعهم ببلاد المغرب سهاما تعويضا لهم عن أراضيهم[10]. وعندئذ، حصلت لأبي الحسن المريني زعامة قبائل زناتة.

ثم لما قدم أبو الحسن المريني من تونس بحرا، بعد هزيمته بالقيروان، وتعرض أسطوله قرب ساحل مدينة بجاية، لعاصفة أغرقت العديد من السفن، ونجا إلى مدينة الجزائر، "بادر إليه أهل ضاحيتها من مليكش والثعالبة، فاستخدمهم وبث فيهم العطاء"[11]. وعندئذ ضم أبو الحسن المريني الثعالبة إلى قبائل العرب الموالية له، وولى عليهم إبراهيم بن نصر بن حيش بن أبي حميد ن ثابت بن محمد بن سباع الثعالبي، ولم تزل رئاسة قبيلة الثعالبة إليه "إلى أن هلك بعد استيلاء السلطان أبي عنان (المريني) على المغربين... وقام برئاستهم ابنه سالم"[12].

ثم كان إحياء الدولة الزيانية على يد أبي حمو موسى الثاني سنة 760 هـ، بمساعدة عرب بني عامر، الذين أصبحوا يقومون بدور رئيسي في الدفاع عن العرش الزياني. وتعرض السلطان أبو حمو الثاني إلى منافسة ابن عمه أبي زيان ابن السلطان لأبي سعيد الثاني، التي هددت عرشه سنوات عديدة، وبخاصة إثر انهزامه أمام مدينة بجاية، في آخر سنة 767 هـ، ووجد أبو زيان هذا أنصارا بين عرب المناطق الشرقية بالمغرب الأوسط، ومنهم قبيلة حصين، من زغبة، والثعالبة[13].

وقد أدت هذه الأحداث إلى ضعف الدولة الزيانية وانشغال أبي حمو الثاني بمواجهة منافسة ابن عمه أبي زيان الذي حظي بتأييد قبائل المناطق الشرقية. وكان أبو حمو الثاني بحاجة ماسة إلى نصرة بعض القبائل العرب للدفاع عن عرشه، والتصدي لغارات منافسه وحلفائه من العرب. وأصبح هؤلاء يسيطرون على الموقف سواء في شرق المغرب الأوسط أو في غربه، ولا يقدمون خدماتهم إلى بعد نيل الكير من الأموال والإقطاعات.

وسرعان ما انقلبت الأوضاع في كثير من أنحاء المغرب الأوسط، وعظم نفوذ قبائل العربية، فاستبد الثعالبة بفحص متيجة، وملك حصين جبل تيطري، وتنافس سويد وبنو عامر في خدمة العرش الزياني، وتعد هذه الفترة مرحلة هامة في تاريخ متيجة وفي غيرها من مناطق المغرب الأوسط، لأنها سمحت للثعالبة وحصين وغيرهم بفرض نفوذهم في مختلف الأنحاء[14]، والمساهمة بشكل ملحوظ في تطور تاريخ المغرب الأوسط.

وفيما يخص الثعالبة، فإن رئيسهم آنذاك، سالم بن إبراهيم بن نصر، قام بأدوار سياسية هامة، سلك فيها مسلكا ينم عن الذكاء والحذر، وانتهاز الفرص والدهاء، وتطبيق مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة". وكان من المؤيدين للأمير أبي زيان، فاحتال على علي بن غالب، من أعيان مدينة الجزائر، الذي عاد إلى هذه المدينة بعد غيابه عنها أيام الاحتلال المريني، واستبد بها. "ونكره سالم (الثعالبي)، أمير الضاحية، لطمعه في الاستيلاء على الجزائر، فداخل في شأنه الملأ من أهل المدينة، وحذرهم منه أنه يروم الدعوة للسلطان أبي حمو، فاستشاطوا نفرة وثاروا به". وعندئذ قام سالم بتحويل دعوة الجزائر إلى الأمير أبي زيان تحت استبداده[15].

ولما تولى عبد العزيز المريني على تلمسان والمغرب الأوسط، سنة 772هـ، أقام سالم الدعوة لبني مرين في الجزائر، إلى وفاة السلطان المريني في ربيع الثاني سنة 774هـ، بعد استيلاء دام سنتين. فعادت الأمور في المغرب الأوسط إلى ما كانت عليه قيل ذلك، ورجع كل من أبي حمو الثاني وابن عمه أبي زيان إلى المناطق التي كان يمتلكها.

وعندئذ، غير أبو حمو الثاني سياسته نحو قبائل العرب، فتحالف مع سويد، واستطاع بذلك أن يستولي على ناحية شلف، وتلا ذلك إذعان الثعالبة وأهالي

الجزائر والمدية إلى طاعته في جمادى الأولى سنة 776 هـ، بينما قبل أبو زيان الانصراف إلى بلاد الدواودة، على أن يدفع إليه أبو حمو مبلغا من المال.

وفي أوائل سنة 778 هـ انتقض سالم بن إبراهيم، شيخ الثعالبة، على السلطان أبي حمو، واتصل بخالد بن عامر وأتباعه من بني عامر، فوافقوه على الخلاف، واجتمعوا على البيعة للأمير أبي زيان، وأقاموا له الدعوة بمدينة الجزائر، ثم توجهوا إلى مليانة وحاصروها، فامتنعت عليهم، وعادوا إلى الجزائر حيث توفي خالد بن عامر. ثم نهض السلطان أبو حمو بجيشه لإخضاع الثعالبة، وتوجه صوب فحص متيجة، فلاذوا إلى جبال تيطري واعتصموا بها. فحاصرهم وضيق عليهم إلى أن انقادوا لطاعته، وقبل مطالبهم، شريطة أن يفارقوا ابن عمه أبا زيان، ويصرفوه عن البلاد، وذلك في أواخر رمضان سنة 778 هـ[16].

وعاد أبو حمو الثاني إلى تلمسان، "وفي نفسه من سالم حزازة لكثرة اضطرابه ومسارعته إلى الفتن، حتى توسط فصل الشتاء وأبعدت العرب في مشاتيها، فنهض من تلمسان في جيوش زناتة، وأغذ السير، فصبح فحص متيجة بالغارة الشعراء، وأجفلت الثعالبة فلحقوا برؤوس الجبال، وامتنع سالم بجبل بني خليل وبعث ابنه وأولياءه على الجزائر فامتنعوا بها... م غلبوه على مكامنه، فانتقل إلى بني ميسرة من جبال صنهاجة... وصار الكثير من الثعالبة إلى الطاعة، وأسهلوا بأمان السلطان وعهده إلى فحص متيجة، وبعث سالم أخاه ثابتا إلى السلطان، فاقتضى له العهد"[17].

وعندئذ، نزل سالم من معتصمه إلى الأمير أبي تاشفين ابن أبي حمو الثاني، في أواخر رمضان سنة 779 هـ، فأتى به إلى أبيه، "فأخفر عهده وذمة ابنه، وتقبض عليه...وبعث قائده إلى الجزائر فاستولى عليها وأقام دعوته بها، وأوفد عليه مشيختها فتقبض عليهم، وعقد على الجزائر لوزيره موسى بن برغوث"[18]. ورجع أبو حمو إلى تلمسان وهو يقود سالما الثعالبي أسيرا. وبعد بضعة أيام أمر بإخراجه من محبسه إلى خارج المدينة، فقتل قعصا بالرماح، ثم تتبع أبو حمو بالقتل سائر أفراد أسرة سالم وعشيرته.

هكذا انتهى بصفو مأساوية دور الثعالبة ورئيسهم سالم بن إبراهيم في الأحداث التي اتسمت بها مرحلة تغلب العرب على كثير من مناطق المغرب

الأوسط، وقاموا خلالها بدور سياسي هام، وفي إحداث تحولات اجتماعية كان لها أثر بالغ الأهمية في تطور ناحية متيجة والمناطق المجاورة. والظاهر أن فصائل قبيلة الثعالبة اندمجت، بعد ذلك، في النسيج السكاني لتلك المناطق، وساهمت حظ زافر في النشاطات الاقتصادية والثقافية وفي الإنتاج العلمي، فكان الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، المتوفى سنة 875 هـ، من أكابر علماء عصره بالجزائر، ومن مشاهير المفسرين والمحدثين[19].

الهوامش:

[1]- عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج6، ض 128

[2]- نفسه، ج 7، ص 133-134

[3]- نفسه، ج 7، ص 134

[4]- نفسه، ج 7، ص 321

[5]- نفسه، ج 6، ص 128، و ج7، ص 325

[6]- نفسه، ج 6، ص 128، 162، عن مليكش انظر: يحي لبن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 181

[7]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 167

[8]- نفسه، ج 7، ص 181

[9]- نفسه، ج 7، ص 209 ، انظر أيضا: يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1. ص213

[10]- انظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 230

[11]- نفسه، ج 7، ص 247-248

[12]- نفسه، ج 6، ص129

[13]- نفسه، ج 7، ص 271

[14]- نفسه، ج 6، ص 128

[15]- نفسه، ج 7، ص 288

[16]- نفسه، ج 7، ص 228

[17]- نفسه، ج 7، ص 289

[18]- نفسه، ج 6، ص 130-131، و ج7، ص 289

[19]- عن عبد الرحمن الثعالبي، انظر أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 82-84